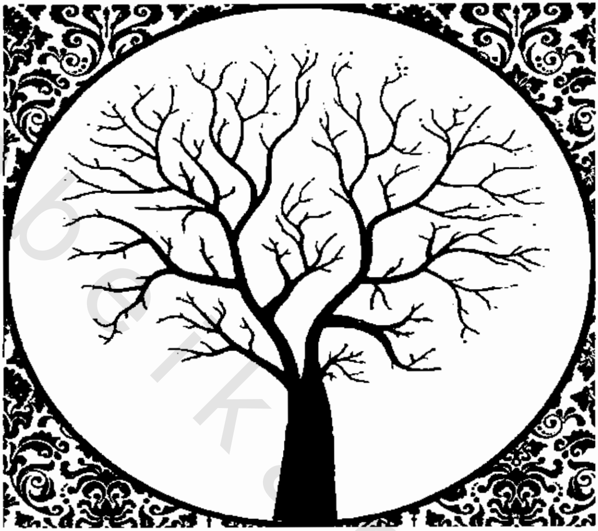

الباب الأول

بين الجهادين الأصغر والأكبر

oberhandl.com

الفصل الأول

نوعا الجهاد

يتغير (مفهوم الجهاد) بمقتضى الظروف التي تؤدى إليه، فيكون فرضًا في موضع وواجبًا في آخر، ومباحًا في موضع ثالث والفرق كبير بين المجاهدين في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، وبين القاعدين عن الجهاد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾[سورة الأنعام – الآية ٩٥].

إن الجهاد الأكبر هو الطريق الذى يسلكه الإنسان طوال حياته، أينما كان وكيفما كان، وفي أى ظرف كان فهو عملية إعلاء الإنسان ورفعه إلى مستوى الإنسانية الحقة من حيث حياته القلبية والروحية أى: محاولة الإنسان طوعًا أو كرهًا جهاد نفسه على مدى حياته كلها، ومقاومتها لِكُلِّ ما لا يرضى عنه الله جل وعلا.

أمَّا الجهاد الأصغر فهو جهاد الإنسان بماله ونفسه في سبيل الله حفاظًا على مقدساته وإذا اقتضى الأمر[1] قتال الأعداء وجهًا لوجه.

إن مفهوم الجهاد (بمعناه الشرعى) في الإسلام هو (الدفاع) وليس (العدوان).

وهذا ينطلق من علاقة المسلم بغير المسلم التي (حَددها القرآن تحديدًا دقيقًا، فإذا مدَّ غير المسلم يده بالسَّلام والأمانِ والتعاون

---

(١)محمد فتح الله كولن - إعلاء كلمة الله أو (الجهاد) - دار النيل للثقافة والنشر ط١ سنة ٢٠٠١ مترجم عن التركية ص٢٢.

وجب على المسلم أن يردَّ عليه هذه المعاملة بمثلها أو بأحسن منها، أمـا الذى يعتدى على حقوق المسـلمين أو كرامتهم أو أعراضهم فإن الإسـلام يدعو المسـلمين إلى الدفاع عن أنفسـهم دون أن يكونوا هم المعتدين)[1].

فالجهاد فى الإسـلام مقصُودٌ بِه الدفاع عن النفس، وعن المال، وعن العـرض، وعن الوطن، وعن الكرامة الإنسـانية وهو الدفاع عن المظلوم، وعن الحق إذا اغتصب.

ومن يقول إن الجهاد قتل أو سـرقة أو ظلم فهو منحرف عن المفهوم الإسلامى الصحيح.

إن الإسلام يقوم على الحوار، والبعد عن الاقتتال، وإراقة الدماء.

فالإسلام دين (الأخوة) بين البشر، واحترام حقوق الإنسان وكرامته، وهو يعطى لغيرْ المسـلم نفس الحقوق التى يعطيها للمسلم، ويفرض عليه نفس الواجبات.

ولا صِلة مطلقًا بينَ الجهاد فى الإسلام والإرهاب، فالجهاد من شرع الله والإرهاب عدوان على الآمنين.

(إن الفـرق بـين الجهاد والإرهـاب كالفارق بين السـماء والأرض. فالجهاد شـرعه الله تعالى للدفاع عن الدين والوطن والعرض والمقدسات، أما الإرهاب فهو عدوان على الآمنين)[2].

---

(١)رجب البنّا - الغرب والإسلام - دار المعارف ط٣ سنة ٢٠٠١.

(٢) أحمـد بهجـت - جريدة الاهرام القاهرة ٦ من ذى القعدة سـنة ١٤٢٢هـ ٢٠ يناير سنة ٢٠٠٢م.

سيّر الرسول ﷺ الجيوش لا للقتال بل للفتح الإسلامى وتأمين حدود الدولة، والدفاع عنها.

وشُـرِّعَ (الجهاد) للدفاع عن حقوق الناس، وعن أنفسهم، ودينهم، واختياراتهم.

ورد فى الحديث النبوى نوعان للجهاد:

أحدهمـا: الجهاد الأكبر: وهو الجهاد الذى يقوم به الإنسـان مع نفسـه، فيبلغ بها معرفة نفسـه، ويصل بها إلى ذاته وإلى ربه، ويجتاز العقبات حتى يصل إلى معرفة الله ومحبته.

وثانيهمـا: الجهاد الأصغر: وفيه يحقق الإنسـان إزالة الموانع بينه وبين الله بالنضال أو القتال.

والجهاد هو غاية خلق الإنسان.

والفهـم لهذا النوع مـن الجهاد على أنه يؤدَّى فـى جبهة القتال فحسـب يقلص أُفُقه، حيث إن ميدان الجهاد واسـع جدًا، يمتد من الشـرق إلى الغرب، وعلى سـعته وشموله قد يكون كلمـةً واحدة، أو سـكوتًا، أو صمتًا، أو تبسمًا، أو طلاقةَ وجه، أو امتعاضًا، أو نفورًا، أو تركًا لمجلس، أو مشـاركةً فيه، وباختصار هو القيام بأى عمل من الأعمال لوجه الله، فإن كل جهد يبذل لإصلاح المجتمع فى أى ميدان من ميادين الحياة، ولأى شـريحة من شـرائح المجتمع، هو لون من ألوان الجهاد الإسلامى.

الجهاد الأصغر فى معنى من معانيه جهاد مادى، أما الجهاد الأكبر فيشـكل الجانب المعنوى من الجهاد، فهو جهاد الإنسان لنفسه وللعالم

obeikandi.com

الداخلى. فمتى أوفى حق هذين الجهادين معًا فقد تأسس التوازن المطلوب[1].

إن الجهاد رغبة فى الخير، لذا فإن المجاهد يحقق لنفسه السعادة النفسية وللآخرين.

قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

إن الجهاد الأصغر تنفيذٌ لأوامر الدين عمليًا وأداءُ ما كُلف به الإنسان من جهاد وقتال للمعتدين.

أما الجهاد الأكبر: فهو محاربة العوائق فى النفس البشرية، تلك التى تعوق عن حسن الخلق وكماله بما فيها من حسد أو أنانية أو غرور وغيرها من صفات النفس الأمارة بالسوء.

وجهاد النفس صعب، لذا قال الرسول ﷺ عند رجوعه من إحدى الغزوات: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر».

والجهاد الأكبر كما حققه الرسول ﷺ جاء متسقًا مع صفة (الرحمة) التى تمثلت فى كل سلوكياته، فكان (جهاده الأكبر) لتحقيق هذه الصفة الغالبة على أفعاله.

أما جهاده الأصغر فتمثل فى مواقف (الدعوة) إلى الإسلام وتجلَّى من خلال هذه الصفة السلوكية العظيمة أيضًا (الرحمة) التى وصف بها الله سبحانه وتعالى ذاته العظيمة.

---

(١) محمد فتح الله كولن - إعلاء كلمة الله أو الجهاد - دار النيل للطباعة والنشر. ص ٢٣٤

قال تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴾[الكهف: ٥٨].

وقد وسعت رحمة الله كل شيء، كما أنه أنزل القرآن الكريم (رحمةً للعالمين) يحمل لهم الدستور السماوى الذى يضمن لمن يسير على هديه السعادة والرضا فى الدنيا والجنة فى الآخرة.

قال تعالى: ﴿ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴾ [الكهف: ٥٧، ٥٨].

ومن رحمة الله سبحانه بعباده أن جعل النبىَّ ﷺ رحمة للعالمين، وجعل مقصد دعوته الرحمة بهم.

قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

أراد الخالق سبحانه أن يكون محمدٌ ﷺ القدوة والمثال للبشرية «أدَّبنى ربى فأحسن تأديبى» هكذا قال الرسول عن نفسه.

وقال تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾[الشمس: ٧-١٠].

وكانت الدعوة إلى القيم والفضائل وحسن الخلق هى رسالته، وفيها تمثل الجهاد الأكبر.

لقد أرسل الله الرسلَ كل رسول إلى قومه، لكنه أرسل محمدًا ﷺ إلى جميع الناس.

قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾. {الأنعام: ١٥٨} وأشار القرآن الكريم إلى أهمية اتخاذه أسوة حسنة.

قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١].

وتظل مجاهدة النفس لتلتزم بمثل خلقه.

إن الرسول محمد ﷺ (نبى الرحمة) قدَّم القرآن الكريم للبشر كما أنزله عليه الخالق سبحانه، وحاول شرحه وتفسيره لهم من خلال أقواله وأفعاله.

وكان يقدم لهم أمثلةً حية من الرحمة بهم، رحمة الخالق سبحانه، ورحمته تعالى كرسولٍ ومبلِّغ لرسالة ربه، ومبشرٍ وهادٍ، اختاره الخالق لهذه المهمة الصعبة، والرسالة المقدسة.

ويظل القرآن الكريم (رحمة) للبشر مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء: ٨٢].

ومن الجهاد الأكبر: الاقتداء بالرسول الكريم فى حبه للقرآن، واهتمامه بالعمل بأوامره والانتهاء عن نواهيه، وحسن تلاوته، مما يكسب الإنسان سكينة النفس، وهدوء البال، وقوة الإرادة، وييسر له الأجر العظيم، والثواب الجزيل، وبذلك يسعد فى دنياه وآخرته، ويجنى ثمار جهاده الأكبر حيث يقتدى بالرسول الكريم فى حبه للقرآن الكريم، ولا يعانى ألمًا ولا قلقًا ولا هلعًا ولا حزنًا، ولا أرقًا ولا كدرًا.

قال تعالى: ﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ

obeikandi.com

عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ﴾ [طه: ١٢٣ - ١٢٦].

إن الاقتداء بسنة النبى ﷺ مما يمكن الإنسان من النجاح فى الجهاد الأكبر، فقد «كان خلقه القرآن».

حقًا إن محمدًا ﷺ هو الجدير وحده فى هذا العالم أن يكون القدوة للبشرية والمثال الذى يحتذى بأقواله وأفعاله، حيث إن سنته التى تركها للبشرية من أقوال وأفعال كانت تطبيقًا فى حياته لما جاء فى القرآن الكريم، تحققت فيها الهداية الحقيقية من خلال طاعة أوامر الخالق سبحانه والانتهاء عن نواهيه.

قال تعالى عن كتابه العظيم: ﴿ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا ﴾ [الكهف: ٥٤].

ولا شك أن تقدُّم الإنسان الحقيقى وحضارته ورقيه وسعادته ونجاحه فى أن يحقق فى الحياة ما يجعله جديرًا بتكريم الله له، كل هذا لا يتحقق إلا من خلال تطبيق سلوكيات الإسلام، وأخلاقه التى التزم بها الرسول الكريم، من خلال تطبيق ما جاء بالقرآن الكريم.

إن الجهاد الأكبر من أبرز معالم الإسلام التى أهَّلته للعالمية، بما منحته من قدرة على إشاعة العدل والتسامح والبعد عن الظلم والعنف والشطط، والقرب من السلم والمحبة.

فهو دعوة لسيادة الحضارة بما تميَّز به من أخلاقيات وأسسٍ رائعة تلزم المجاهد باتباعها حتى إذا لم يعمل بها الطرف الآخر.

فهو يجاهد في نفسه كلَّ ما يهوى بها إلى الشر والفساد. ويزكى فى نفسه كل ما يحقق لها السُّمو والارتقاء.

ويتجلى الجهاد الأكبر فى جهاد النفس وتربيتها. وتعويدها أحسن الخلق والسلوكيات.

وقد تحقق ذلك عند بعثة الرسول محمد ﷺ، حيث كان الإصرار من المَلَكِ (جبريل) المرسل بالوحى بطلب القراءة.

قال تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴾[العلق: ١-٤].

وكانت المجاهدة فى تحقيق ما جاء به جبريل من آيات القرآن الكريم وتحقيقه وتأكيد أهميته وإبلاغ رسالته، حتى تحول المجتمع من الأمية والجهل إلى الحضارة والتقدم.

قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الجمعة: ١٤].

وكانت إرادة الله سبحانه أن يتحقق البعثُ الحضارى للأمة من جديد من خلال تلاوة آيات القرآن الكريم وتدبُّرها وتعلُّمها، والعمل بتعاليمها، وأن يكون النبىُّ المعلمُ الرائد للبشرية، باعثًا للحضارة والتقدم، يُعلم البشر كتاب الله، فيكون الرقى، وتُبعث الحضارة العظيمة التى يأخذ منها العالم بأسره، ويتقدم على مدى الأزمان.

كان التحدى للأمية هو الطريق لازدهار الحضارة الإسلامية، وكان للكلمة أهميتها وأثرها العظيم.

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾[إبراهيم: ٢٤-٢٥].

ضرب الرسولُ ﷺ أروعَ الأمثلة فى أسلوبه ولغته ومنهجه فى الدعوة إلى الإسلام «بالحكمة والموعظة الحسنة».

وظلت أحاديثه وستبقى واحةً للنفوس ومثالا للبلاغة والجمال اللغوى، فقد أُوتى «جوامع الكلم. واستطاع أن يغير وجه الدُّنيا، وكانت للغته العربية الجميلة الفاعلية والقدرة على التعبير والتأثير وبعث الحضارة العربية.

قال عن نفسه: «أنا أفصح العرب، بَيْد أنى من قريش».

وهذا يؤكد ريادته لبلاغة الكلام، وفصاحته خاصة، لأنه من قريش، وأن قريشًا كانوا أفصح العرب ألسنة، وأخلصهم لغة، وأعذبهم بيانًا»[1].

وتأثر الكثيرون بفصاحته، وتعلموا من بلاغته، وأشاد به الشعراء، وقالوا فيه أجمل الأشعار، ولا ينسى أحد قصيدة (كعب بن زهير) التى يقول فيها:

إن الرسولَ لنَورٌ يُستضاء به ... مهنَّدٌ مِن سيوف الله مسلولُ
فى عُصبةٍ من قريشٍ قال قائلُهم ... ببطنِ مكة لما أسلموا زولوا

---

(١) الرافعى - إعجاز القرآن والبلاغة النبوية - دار الكتاب العربى - ط. ٩ - ص٢٨٦.

لا يفرحـون إذا نالـت رِماحُهُـم قومًـا وليســوا مجازيعًا إذا نيلوا

ومن قصائد الشاعر (حسان بن ثابت) قوله:

وأحسنُ منكَ لم تـر قطُّ عينى وأجمل منــك لــم تلــد النســاء
خُـلقت مبــرأً مِن كـلِّ عيـبٍ كأنك قــد خُلقــت كمــا تشاء

إن الجهاد الأكبر هو ما أوصل النبى ﷺ إلى هذه الشـخصية المثالية التى يتعلم من سـنتها البشـر فى كل زمان وفى كل مكان، ويجاهدون فى ذلك.

ذهب شـخصٌ إلى الرســول ﷺ يحاول إغــراءه ليتوقف عن الدعوة، فتحدث إليه الرســول ﷺ وأسمعه بعض آيات مــن القرآن الكريم، فلما عاد إلى قومه قال: «إنى واللّهِ سمعت قولا واللّهِ ما سمعتُ مثله قطُّ، واللّهِ ما هو بالشـعر ولا بالسِّـحر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش، خلُّوا بين هــذا الرجل وبين ما هو فيه، فـواللّهِ ليكونن لقوله الذى سمعتُ منه نبأٌ عظيم»(١). وهذا مثال لأثر أحاديثه فى جميع من حوله.

لقــد ترك كنــزًا رائعًا للبشـرية فى أحاديثه الشـريفة التى اهتمت بالإنسان وتعاملاته، وكل شئون حياته.

ولا غرابــة فى ذلك، حيث تربى على القــرآن الكريم وتأثر ببلاغته العظيمة، التى خاطبت العرب بأصفى لغاتهم، وأمتن أســاليبهم، وأبلغ تشــابيههم واســتعاراتهم، وألطف كناياتهم، وأوجز تعابيرهم. فجاءت أحاديث الرسول ﷺ فى صور بليغة، وألفاظ دقيقة متناسقة، حتى تمكن

---

(١) ابن هشام - من السيرة النبوية - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ٣٢ ، ٣٣.

من إبلاغ رسالته، وحوَّل أمته من قبائل معزولة عن الحضارة إلى أمةٍ ذات علم وحضارة، كان لها تأثيرها العظيم في العالم كله.

وكانً للرسول المعلم الأول للبشرية أساليبه العظيمة في تعليم من حوله وتربيتهم ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴾ [النجم: ٢-٣] وتزكية النفس والرقى بها.

جهاد أكبر يجاهده الإنسان دائمًا حتى يصل إلى سلوك الشخصية الفاضلة.

أما الجهاد الأصغر: فهو ذلك الجهاد الذى يُضطر إليه المسلمون للدفاع بالمال أو بالنفس عن حياتهم، أو دينهم، أو كرامتهم، أو وطنهم، أمام معتدٍ لايرتدع بالسلم، أو الإقناع، أو الحوار.

وقد واجه الرسولُ ﷺ وصحابته والسلفُ الصالح من بعدهم أحداثًا ومواقف كثيرة مع هؤلاء المعتدين.

وكان لابد من الامتثال لأمر الخالق سبحانه، بضرورة الجهاد بالمال أو بالنفس لمواجهة المعتدين، والدفاع عن أنفسهم وإعادة حقوقهم.

وكانت الهجرة من مواقف الجهاد لنصرة الدين. ثم كانت غزوات النبى وصحبه لنشر الدين الحق.

كانت الهجرة من مكة إلى المدينة من الأحداث المهمة فى تاريخ الدعوة الإسلامية، فقد كانت نهايةً لعهدٍ تعرض فيه المسلمون لألوان مختلفة من الاضطهاد والأذى، فجاهدوا وما ضعفوا ولا استكانوا، وبدايةً لعهدٍ جديد نصر الله فيه الإسلام نصرًا عظيمًا، كان لابد من الجهاد، وكان لابد من الهجرة والفرار إلى الله بدينهم بعد كل ما تحملوه من مواقف الإيذاء، والظلم، والفتنة.

قــال تعــالى: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴾ [الحشر: ٨].

وقــال تعــالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٤١].

وقــال تعــالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَـٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل: ١١٠].

إن هؤلاء الطغاة لم يكتفوا بما كان منهم من تعذيب واضطهاد لمحمد وأصحابــه، ولكنهم فى فجورهم لا يقفون عند حد، منهم من يضحكون من الذين آمنوا استهزاء بهم وسخريةً منهم[1].

وفى تصوير ذلك قال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴾ [المطففين: ٢٩-٣٢].

وليــس هناك انفصال بين النوعين من الجهاد الأكبر والأصغر، وإنما هما يرتبطان ارتباطًا لازمًا.

---

(١) محمد الدســوقى - الهجرة فى القرآن - دار المعارف - سلســلة اقرأ - ج٣٣٨ - سنة ١٩٧٧ - ص٣٤.

فبالجهاد الأكبر تتدرب النفس وتتحصَّن الشخصية بما يؤهلها للقيام بالجهاد الأصغر بما يستلزم من قوة وإرادة.

وقد كانت الهجرة أول نوع من أنواع الجهاد الأصغر، فهى الحادثة الوحيدة فى تاريخ البشر التى خص الله سبحانه وتعالى بها النبى محمدًا ﷺ حين اشتدت عداوة المشركين له، ووقوفهم ضد دعوته فنـزل له الأمر الإلهى فى قوله تعالى:

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٣٠].

وفى سـبيل الهجرة والدعوة اتبع الرسـول ﷺ النوعَ الأول من نوعى الجهـاد، وهو إلـزام النفس بحسـن الخلق، والتزام الحـق، والتخلى عن العصبيـات الجاهلية، وهو الجهاد الأكبر الذى يؤسسـه النبى ﷺ بأحاديثه إلى البشـر التى تنمى لديهم الالتزام بحسـن الخلق، وبأفعاله وسلوكياته التى يتعلمون منها، ويقتدون بها.

ويستعين النبى ﷺ بدوره بما يتعلمه، ويطبقه مما يوجهه إليه الخالق سبحانه فى آيات كتابه العظيم القرآن الكريم، ومنها قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾[الحجر: ٩٧- ٩٩].

لقـد تيقن النبى ﷺ أن تربية النفس ومجاهدتها حتى يكون المسـلم حَسـن الخلق قادرًا على الدعوة وعلى الجهاد فى سـبيل نشرها، فاهتم بدور المسجد، وعقد فيه المعاهدات بينه وبين قبائل اليهود.

وأرسى أسسَ السلام والسماحة فى العلاقة بين الإسلام والأديان الأخرى، ومراعاة حقوق الإنسان دون تعصب.

وظهر كلُّ ذلك فى موقف الهجرة حيث كانت تلك العلاقة الرائعة بين المهاجرين والأنصار، وقد عبَّر عنها القرآن الكريم فى آيات كثيرة، منها قوله تعالى:

﴿ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾[الأنفال: ٦٣].

وقال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

لقد اهتم الرسول ﷺ بإشاعة الرحمة بين الجميع، ليحقق ما أمر به كتاب الله العظيم، من إشاعة مشاعر الرحمة التى فطر الناس عليها، ليرحم الناس بعضهم بعضًا، كما يرحمهم الخالق سبحانه.

قال تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: ٨٩].

وكانت الهجرة جهادًا أحاطه الله سبحانه بحمايته. وكان النبى ﷺ مطمئنًا أن الله سبحانه معه، ومع صاحبه أبى بكر، فطمأنه قائلا: «يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما، لا تحزن إن الله معنا».

وجعل الله سبحانه من خيوط العنكبوت سدًّا منيعًا، وكانت معهما جنود الله التى لايعلم قوتها إلا هو:

﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ [المدثر: ٣١]. وعادت جحافل قريش من حيث أتت.

وسبق هذا مواقف الفداء العظيمة. حين نام عليٌّ رضا الله عنه على فراش النبى ﷺ ليلة الهجرة، وأوكلَ لأسماء بنت أبى بكر دورًا هامًّا لتذهب إلى الرسول ﷺ وأبيها أبى بكر رضا الله عنه فى غار ثور كلَّ مساء تحمل إليهما الغذاء والماء فى طريقٍ وعر، وظلام حالك، لاتخشى إلا الله. وبعد ثلاثة أيام فى الغار بدأت المسيرة عبر طريقٍ وعرٍ طويل تشقُّه الناقة القصواء، لتشهد خلالها ملاحم من بطولة وفداء فى مواجهة أمهر فرسان قريش التى لاحقت النبيَّ ﷺ وصاحبه.

واستقبلت المسيرةَ فى المدينة نماذجُ رائعة من الصحابة والصحابيات، الذين قدَّموا صورًا عظيمة من الجهاد والبذل والعطاء والأخوة والمحبة والإيثار. وعبرت الآيات القرآنية العظيمة عن ذلك كله فى مثل قوله تعالى:

﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر: ٩].

وكانت وصايا الرسول ﷺ لجماعة أصحابه فى أسس الدعوة إلى الإسلام وللقادة الذاهبين لمواجهة عدو لا يرحم، وأنهم لن ينشروا الإسلام بالسيف لكن السلام هو القاعدة، أما الحرب فهى ضرورة إذا اضطروا إليها.

وضرب الرسول صلوات الله وسلامه عليه وأصحابه أروع المثل فى الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

ولم تَكُنْ الهجرة هى الموقف الأخير فى جهاد الرسول ﷺ وصحابته فى سبيل الدعوة للإسلام، وإنما اضطروا إلى مواجهات أخرى كثيرة

اتبعوا فيها أساليب كثيرة للجهاد فى سبيل تبليغ كلمة الله، وهى كلمة الحق. حتى وصلوا بالدعوة إلى بر الأمان.

لقد ظل الرسول ﷺ يدعو الناس إلى الله فى مكة ثلاثة عشر عامًا، بدأها بالجهاد المعنوى وهو الجهاد الأكبر الذى تمثل فى إرساء حسن الخلُق، والقيم السلوكية النبيلة فى النفوس وترك العادات السيئة والتقاليد البالية.

أما الجهاد الثانى (الجهاد الأصغر) فهو ما تمثَّل فى الحروب التى أذن للرسول وأصحابه بالقيام بها بعد الهجرة إلى المدينة، وتكوين الدولة الإسلامية حيث صدر الإذن الإلهى فى قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩].

وكان القتال لرد الاعتداء الذى وقع على المسلمين وإخراجهم من ديارهم.

وصار الجهاد عقيدة إسلامية وفرضًا على المسلمين، قال تعالى:
﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤].

ومن الأحاديث النبوية الشريفة التى تجمع الجهادين، قول الرسول ﷺ:
«عينان لا تمسُّهما النار، عينٌ بكتْ من خشية الله، وعين باتت تحرس فى سبيل الله» الترمذى، فضائل الجهاد.

وفى تأكيد معنى أهمية جهاد النفس باعتباره الجهاد الأكبر، يأتى قول الرسول ﷺ: «رجعنا مِن الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر».

وهناك آيات قرآنية كريمة تجمع بين الجهادين، منها:
قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ

﴿يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ [سورة النصر].

إن النظـرة العادلـة للإسـلام تؤكد أنه لا يقوم على الإرهـاب، وأن هناك مجالات واسعة للتعاون بين الإسلام والأديان الأخرى.

ولا يتبنى الإسـلام قط فكرة الهجوم أو العداء أو الخصومة والصراع، لكن يؤكد دائمًا على ضرورة التسـامح والعدل والرحمـة والبعد عن الظلم والعنف، والتحلي بالشـجاعة والإقدام والثبـات والصبر والتضحية بالروح والمال، دفاعًا عن الأرض أو العِرض أو الحرية.

أما هذا التصوير الظالم للجهاد فى الإسلام بما يدعيه البعض أنه يدعو إلى القتـل والاغتيال، وأنه يرفض التعايش مع الآخـر، فهو تصوير باطل واتهام كاذب.

لقد أكدت الحقائق عكس ذلك تمامًا، فمثلا عندما هاجر النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينـة أقـام المجتمع على العـدل، فعقد الصلح مع اليهود والمشـركين، واسـتقبل نصارى نجران فى مسـجده، وكانت المدينة تضم خليطًا من العقائد المختلفة، لكن الرسول ﷺ نهى عن الإساءة إلى المخالفين له، عملا بقوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢].

استقر النبى ﷺ بالمدينة، وأسَّس بها حكومته النبوية، وكان مستهدَفًا من قريش للقتل، وكان أصحابه مُهددون أيضًا، فنـزلت الآيات الكريمة، تحثهم على حماية أنفسهم، ودينهم، بالدفاع والمواجهة.

«لقد سمح الإسلام للمسلمين أن يدافعوا عن أنفسهم، وعن الدين الذى أُنزل للإنسانية كافَّةً فى عالم يضيع فيه الحق إن لم تكن وراءه قوة تؤيده، فكان لا مناص من السماح للمسلمين بحماية أنفسهم ودينهم بالسلاح الذى يشهره خصومهم فى وجوههم»[1].

ومن أهم سمات العلاقة بين الرسول ﷺ وغير المسلمين:

المعاهدة التى تعتبر وثيقة تاريخية عظيمة والتى عقدها الرسول ﷺ مع اليهود بالمدينة. فقد أكدت فكر الرسول ﷺ الغنى بروح السلام والمصالحة والمسالمة.

ومن نصوص هذه المعاهدة: أن المسلمين من قريش ويثرب ومَن تبعهم فلحقَ بهم وجاهد معهم أمةٌ واحدة، وأنه لا يحق لمن أقر بما فى المعاهدة أو الصحيفة أن ينصر مجرمًا أو يأويه وإلا تحل عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة.

ونصت الصحيفة على أن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وأن لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، وأن من خرج من المدينة آمن، ومن قعد بها آمن، والله يراقب ويحاسب الجميع.

هذه المعاهدة تؤكد إيمان الرسول ﷺ بالسلام والسكينة والتعاون، وحرية الاعتقاد الدينى، ونصرة المظلوم وحماية الجار، ورعاية الحقوق.

---

(١) محمد فريد وجدى - السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة - ص١٦٢، ١٦٣.